طه حسين في مناظرة ... وفي كتبه

بقلم موريس كامل

لا اقصد ، في هذا الفصل ، قصد النقد ؛ ولا اقصد قصد المناقشة .

ثمة وقائع ، في مناظرة الدكتور طه حسين [1] ، اثارت في نفسي الواناً من الملاحظات والتفكير ، رأيت ان اذيعها على القراء لتثير في نفوسهم الملاحظة والتفكير .

واول ما اقف عنده ، من هذه الوقائع ، آراء متباينة في موضوع واحد ، وردت في مناظرة عميد الادب حديثاً ، وفي فصوله قديماً ..

.. وكتبه تشهد

●

وبعد ، فقد قال الدكتور طه حسين في مطلع المناظرة :

« انا لم التزم الدفاع عن الخاصة ولا عن العامة ، وانا لم التزم موضوعاً ما .. فهذه المناظرة او هذه الموقعة او المعركة او هذه الخصومة ، انما هي فيما اعتقد شيء مصطنع لا اعرف له اساساً ولا اعرف له اصلاً ، لسبب في غاية البساطة ، وهو اني فيما بيني وبين نفسي ، وفي كل ما كتبت ، وفي كل ما علقت ، وفي كل ما حاولت من عناية بالادب . لم افهم عامة وخاصة بالقياس الى الادب .. » .

وهنا يجدر القول ان الدكتور نفسه ، اعلن في المناظرة نفسها او اذاع :

« تلقيت دعوة كريمة من جمعية المقاصد الاسلامية امضاها الاستاذ الصديق سهيل ادريس « وعرض فيها ان ستكون مناقشة حول الكتابة للخاصة والكتابة للعامة ، وطلب الي او ذكر اني سأتحدث عن الكتابة للخاصة ان اردت » و« قد القى في روعي (شوقي الى لقاء لبنان) ان اجيب الاستاذ سهيل ادريس باني موافق .. »

ثم اعلن الدكتور طه حسين نفسه في المحاضرة نفسها او اذاع :

« ان سوفوكل .. وكل الشعراء البارعين وكل الكتاب الممتازين .. انشأوا فنونهم لطائفة بعينها » .

كذلك اعلن الدكتور طه حسين نفسه في المحاضرة نفسها او اذاع : « ما دمنا متفقين على ان الاديب لا ينبغي ان يضحي بفنه في سبيل قرائه فلن يكتب الاديب الا للخاصة » .

اسوق هذا الكلام من غير تعليق ، لأني لا اقصد في هذا الفصل قصد النقد ؛ ولا اقصد قصد المناقشة .

والواقع يشهد .

●

وحاول الدكتور طه حسين في المناظرة ان يدحض نظرية الكتابة للخاصة والكتابة للعامة (مع انه اصطفى الخاصة في النهاية) فاعلن بداءة :

« لست من الذين تفتنهم هذه الآراء الكثيرة الخطيرة الحديثة التي يشغل بها الاوروبيون انفسهم .. منذ كانت هذه النظريات السياسية التي غيرت نظم الحياة في هذا العصر الحديث » فان الاديب « قد وجد قبل ان توجد هذه النظريات ، وهو قد اثر في حياة الامم والشعوب ، وقد اتاح لها ان تتطور .. دون ان يفكر الذين انشأوا الادب في انهم يكتبون للعامة او للخاصة او يفكروا في انهم موجَهون او موجهون ، كل هذه اشياء لم تكن تخطر للادباء ببال عندما انشأوا روائعهم منذ العصور القديمة الى اوائل هذا العصر .. »

واستشهد :

« دعوا هذا العصر الحديث الذي نعيش فيه ، ودعوا الظروف التي تحيط به وتؤثر في الادباء وفي ادبهم اثاراً مختلفة (؟) وانتقلوا بنا الى عصر بعيد كل البعد عن هذه الظروف التي نحن فيها ، واختاروا اي اديب شئتم من ادباء العصور القديمة . ولنختر مثلاً ادباء التراجيديا عند اليونان . فمن الذي وجه كاتباً او شاعراً كسوفوكل مثلا ؟ .. ان سوفوكل لم يحفل عندما انشأ « انطيغونا » لا بريكايس ولا بالذين سبقوا بريكايس .. وانما وجد امامه اسطورة قديمة رائعة تأثر بها اليونان .. فاستغل هذه الاسطورة .. دون ان يكون للسياسة ولا لأحد سلطان على هذا الشاعر » فقد « استطاعت طائفة من القدماء ان تنتج ما انتجت دون ان تفكر في شيء من هذا الكلام الجميل (كلام رئيف خوري) الذي استمعنا له منذ حين ، لأن كل هذه المعاني لم تكن تخطر لاحد منهم ببال او لان العصر لم يكن يسمح بان تنشأ هذه المعاني ولا ان يدفع اليها الكتاب والشعراء » .

قلت ان الدكتور حسين نفسه اعلن في المناظرة نفسها او اذاع « ان سوفوكل .. وكل الشعراء البارعين .. انشأوا فنونهم لطائفة بعينها » . وهنا يعنيني ذكر ما ورد في كتبه حول وضع الاديب ، وحول تأثير العصر والبيئة ، وحول طبيعة الفن الاغريقي .

١ راجع العدد الماضي (نوار) من الآداب .

كتب الدكتور طه حسين في مقدمة كتابه « في الادب الجاهلي » يقول :

« الادب الانشائي هو الادب حقاً . وهذا الادب الانشائي خاضع لكل ما تخضع له الاثار الفنية من تأثر بالبيئة وبالجماعة والزمان، وما الى ذلك من المؤثرات الاخرى ، ومن تأثير هذه المؤثرات ايضاً . وهو مرآة لنفس صاحبه . وهو مرآة لعصره وبيئته . »

واذاع في كتابه « فصول في الادب والنقد » في فصل عنوانه « مع ادبائنا المعاصرين » :

« الشيء الذي يظهر انه لا يقبل الشك ولا يحتمل الجدال ، هو ان الانتاج الادبي ظاهرة اجتماعية . »

« والحق الذي لا شك فيه ان الاديب اجدر الناس بان يكون هذا الحيوان الاجتماعي الذي تحدث عنه الفيلسوف القديم ، فهو لا يعيش الا للناس . منهم يستمد خواطره واراءه . ينتج إن غذوا حسه وشعوره وعقله بالظواهر والحوادث والواقعات ، وينعم إن أحس أنهم يسيغون ما يقدم اليهم من غذاء » .

« والمهم ان الاديب مهما يكن امره ، كائن اجتماعي لا يستطيع ان ينفرد ، ولا ان يستقل بحياته الادبية ، ولا يستقيم له أمر الا اذا اشتدت الصلة بينه وبين الناس » .

وفي نقده كتاب « فيض الخاطر » لأحمد امين، اعلن احسن ما يكون الاعلان : « ما اكره ان اهبط الى العامة بل يجب ان ادنو منهم ، ويجب ان أرفعهم الى حيث يذوقون الادب الرفيع ، هذه هي الديموقراطية الصحيحة . »

واذاع في فصل عنوانه « الى صديقي احمد امين » :

« لما عصفت العاصفة . . كنا ايها الاخ العزيز ألسنة الساسة وسيوف القادة والسفراء بينهم وبين الشعب . وكنا سياطاً في ايدي الشعب يمزق بها جلود الظالمين تمزيقاً . وكنت ترى، وكان غيرك يرى ، آثارنا في الظلم والظالمين، وبلاءنا في مقاومة العدوان والمعتدين، وحفاظنا لهذا الشعب الذي لم يكن له قوة الا قوتنا يومئذ . »

وفي شأن الادب الاغريقي اعلن الدكتور طه حسين او اذاع في المقدمة التي وضعها للترجمة العربية لكتاب اندره جيد « اوديب » :

« الشعراء الممثلون من اليونان يعتمدون في تمثيلهم ، بحكم الفن نفسه ، وبحكم الدين ايضاً ، على الاساطير . . فالابطال والالهة هم موضوع القصص في الالياذة والاوذيسة ، وهم الموضوع الاساسي لتمثيل الممثلين . ومع ذلك فتغير الصورة له خطره العظيم وان بقي الموضوع ثابتاً مستقراً ، ذلك ان الصورة لم تتغير الا لان النفس اليونانية قد تغيرت بحكم ما احاط بالشعب اليوناني من الظروف . . فقد كان القصص اليوناني صورة لحياة الجماعة . . ثم تتقدم الحضارة ويرقى العقل ، وتقوى الشخصية وتظفر الشعوب في المدن بحقوقها السياسية ، فتتغير صورة الشعر »

والسؤال : لماذا لجأ سوفوكل الى موضوع قديم ؟ هل لأنه « وجد امامه اسطورة قديمة رائعة » ؟

يقول الدكتور طه حسين نفسه في مقدمة كتابه « الشعر التمثيلي اليوناني » :

« ان التراجيديا كانت عملا دينياً قبل كل شيء ، فلم يكن بد من ان يمت موضوعها الى الدين بسبب » . ان « مكان التراجيديا من الدين وحرص اليونان على سننهم الموروثة – لايغيرونها مهما ظهر من فسادها – حالا بين الشعراء وبين اختراع الموضوعات الطريفة » . لقد « اضطر الشعراء الى ان يتخذوا موضوعات قصصهم من ابطال العصور الاولى الذين نوهت بهم الالياذة والاوذيسة . . ولم يكن كل هؤلاء الابطال ليصلحوا موضوعاً للتمثيل ، فاختار الشعراء من بينهم من هو اشد الى الحياة الواقعة قرباً » . وهناك شيء « لا بد من الاشارة اليه اذا اردنا ان نستقصي المؤثرات التي عملت في تكوين الاثار التمثيلية لسوفوكليس، هو هذه الجماعة اللاتينية التي عاشرها الشاعر في جميع اطوار حياته منذ بلغ رشده . »

« كانت هذه الجماعة تمثل ارقى طبقة مفكرة في العالم اليوناني (سيمون بيريكليس ، هيرودوت ، فيدياس . .) وغيرهم من زعماء السياسة والادب والفن . . وكانت هذه الجماعة محبة للحياة كافة بلذاتها تستمتع بها غير مسرفة ولا مغرقة . وكان احب شيء اليها ان تجتمع الى الطعام والشراب متجاذبة اعذب الحديث . . متحاورة متناظرة في اطرف الموضوعات . . فما اشد تأثير هذه الاجتماعات في ترقية الحوار وتهذيبه وجعله من الرقة والدقة بحيث يلائم هذه العقول التي كانت تفهم فتسرع في الفهم . كل هذا تراه جليا فيما اشتملت عليه قصص سوفوكليس من حوار او جدال . »

وفي حديثه على حياة سوفوكليس اعلن او اذاع :

« كان سوفوكليس ابن هذا العصر الذي رقي فيه العقل اليوناني والشعر

صدرت اليوم

الطبعة الجديدة من

الشيخ والبحر

لهمنغواي

للكاتب الأميركي الشهير

أرنست همنغواي

وهي الرواية الفائزة بجائزة نوبل لعام ١٩٥٤

نقلها الى العربية الاستاذ

منير البعلبكي

الثمن ليرة ونصف — دار العلم للملايين

اليوناني ، واصبح فيه الانسان يشعر اشد الشعور بوجوده ويعترف اشد الاعتراف بشخصيته ويود لو اكره كل شيء على ان يعترف بهذه الشخصية ويشعر بذلك الوجود . »

« نشأ هذا كله عما كان من الاستحالة الاجتماعية والاقتصادية اللتين غيرتا ما كان لليونان من نظام سياسي ، وجعلتا الحرية حظاً شائعاً بين افراد الشعب جميعاً سواء منهم الفقير المعدم والغني المثري وسواء منهم الشريف الرفيع والسوقي الوضيع . »

« فكر كل انسان ، وعمل كل انسان ، واحس كل انسان بأن لتفكيره ثمرة ولعمله نتيجة ، فعرف انه شيء يذكر واعتقد انه موجود لا ينبغي لأحد ان يهمله او ينكر ما لوجوده من خطر او قيمة ، ونشأ عن ذلك اعتقاده ان له ارادة حرة تستطيع ان تمانع فتفوز في المانعة ، وان تنازع فتنتصر في النزاع . »

« على هذا الاصل الذي هو الى السياسة اقرب منه الى الفلسفة قامت قصص سوفوكليس . . »

واعلن الدكتور طه حسين او اذاع في كتابه « قادة الفكر » :

« ظهر تأثير الجماعة الاتينية بسقراط وجزع الطبقات الارستقراطية من سلطانه على الشبان في نحو ٤٢٥ ق.م حين اخذ الشاعر التمثيلي المشهور « ارستفان » الذي كان لسان الاحزاب الارستقراطية المحافظة ، يعرض بسقراط في قصصه التمثيلية المضحكة واصبح سقراط يخيف الارستقراطية . »

اسوق هذا الكلام من غير تعليق ، لأني لا اقصد في هذا الفصل قصد النقد . ولا اقصد قصد المناقشة .

والواقع يشهد

•

وبعد

اعلن الدكتور طه حسين في المناظرة او اذاع :

« لست ادري أعندكم الآن هذه المشكلة التي يشقى بها كثير من الكتاب ومن الادباء في مصر ، وهي السخط على المدح والمادحين والممدوحين واعلان ان شعر المدح انما كان يصور مهنة الشاعر ويصور انه كان يبيع شعره ويبيع خلقه ويبيع نفسه . . »

« اؤكد لكم ان هذا كله ليس في حقيقة الامر الا عبثاً من العبث ، وكلاماً لا يقدم اصحابه ولا يؤخر . فليس من شك في ان شعراءنا قد مدحوا ، وغلوا في المدح إذ قالوا شعرهم ، ولكن ليس من شك ايضاً في اننا عندما ندرس حال هؤلاء الشعراء الذين كانوا يبيعون المدح ويأخذون ثمنه من الامراء والخلفاء ، وندرس حال اولئك الذين كانوا يغرون بهذا المدح ويعطون الجوائز السنية في سبيل هذا المدح ، ونسأل انفسنا : اي الفريقين كان ادنى الى الغفل ، واقرب الى الحماقة ، واي الفريقين كان مغفلاً بالمعنى الصحيح ؟ فالجواب هو ان الملوك والخلفاء والامراء هم الذين كانوا اغفالا مغفلين ، وان هؤلاء الشعراء كانوا يعبثون بهم ويسخرون منهم فيما بينهم وبين انفسهم . » فليس « الشاعر هو المغفل ، وانما المغفل هو الذي ترك نفسه ينخدع بهذا الكلام » فاي الفريقين « كان يبيع نفسه ، واي الفريقين كان يبيع خلقه ، واي الفريقين كان ينزل للآخرين عن كرامته ؟ اما انا فاعتقد ان الممدوحين هم الذين خسروا في هذه القضية ، وان الشعراء لم يخسروا فيها شيئاً »

وتابع ، « لم يخطر لأحد من هؤلاء الشعراء ان يفكر في عامة او خاصة وانما فكر في فنه . . ولم يزد على هذا الا انه اجاد واتقن ما اتيحت له الاجادة واتيح له الاتقان » .

وهنا يجوز القول ان الدكتور نفسه ، اعلن في المناظرة نفسها او اذاع :

ان اصحاب السياسة « استغلوا هذا الشاعر او ذاك » وان الشعراء « قبل ان يفكروا في الممدوحين ، وفي المهجوين ، وفي السياسة ، انما يفكرون في الشعب ، ويفكرون في هذه الكثرة الذين سيقرأون هذه القصيدة او سيتناشدونها فيما بينهم . »

وفي حملته على الادب الموجه اعلن الدكتور طه حسين او اذاع :

« ما تحبون للاديب ؟ اتحبون ان يكون خادعاً وان يكون مخدوعاً ؟ واذن فليكن الاديب موجهاً ، ولتكن سيرة الاديب مع الذين يوجهونه كسيرة ابي تمام والمتنبي . »

واعلن الدكتور طه حسين او اذاع في كتابه « مع المتنبي » في حديثه على الشاعر حين فارق سيف الدولة والقى بنفسه بين يدي سيده الجديد كافور يمدحه :

الى اساتذة الانشاء

في أقطار العروبة جميعاً

•

لقد اجمع المربون على ان سلسلة

كيف اكتب

المصورة هي افضل ما وضع لتعليم الانشاء في المدارس الابتدائية . فراجعوها قبل ان تقرروا كتب الانشاء للعام القادم تخدموا طلابكم وتوفروا على انفسكم كثيراً من عناء هذه المادة الاساسية من مواد التعليم .

وتقع السلسلة في اربعة اجزاء ملونة تحتوي على مجموعة من القصص الطويلة الممتعة والمشاهد المسرحية للتمثيل في الحفلات المدرسية .

دار العلم للملايين

ميّ وسعد والجلاء !

ألقيت في مهرجان الجلاء السنوي بدمشق في ١٧ نيسان ١٩٥٥ .

•

لفتةً يا ميّ .. نيسانُ عبيرٌ ، وبشائرْ
وربيعٌ ، مثلَ عينيكِ ، أصيلُ السحرِ آسرْ
أنظري .. غمغمةُ النبعِ ، وحسناءُ ، وشاعرْ
وخطانا تنسجُ المرجَ .. نسيماً وأزاهرْ
حبنا أترعَ هذي الارضَ نبضاً ، ومشاعر
حبنا يا مي .. هل آمنتِ أن الحبَ قادرْ ؟!

•

حرةٌ أنتِ ، اسفحي حيثُ تشائينَ رؤاكِ !
وطني حلو كريّاكِ .. جميلٌ كصباكِ !
ربوةُ الشامِ لنا ، والنهرُ همسٌ وتشاكي ،
وظلالُ الغوطةِ الخضرِ يقبلنَ خطاكِ
حرةٌ أنتِ .. انثري حيثُ تشائينَ رؤاكِ
وطني حلو كعينيكِ .. وحيٌّ كصباكِ !

•

أنظري ، غابةُ دوحٍ تفرشُ الأرضَ ظلالا
وتدلي الثمرَ الاشهى .. يميناً ، وشمالا !
هي لي ، بلْ لكِ يا ميّ ، إذا العشاقُ آلا
في غدٍ عشاً ، وسهراتٍ ، وأحلاماً طوالا ،
كم تحصنا بها ، إذ ألهبَ البغيُ النضالا
وتحدى .. فأحالَ الشامَ ساحاً ، ونزالا !

•

هذه ألحاننا النشوى ، وافراحُ الجلاءِ !
أسكرتْ نيسانَ ، فاستلقى على جدولِ ماءِ
أتذكرتِ .. إذ السفاحُ يسقي بالدماءِ
هذه الأرضَ ، ويكسوها ضلوعَ الشهداءِ ؟
من بلاءٍ سارَ هذا الشعبُ جيلاً لبلاءِ !
فدعينا نغمسُ العودَ .. بأفراحِ الجلاءِ !

•

« جحد ماضيه كله ، ورفض اراءه كلها ، ونزل حتى عما كان خليقاً ان يحتفظ به من ايسر الكرامة واهون الكبرياء .. ظن نفسه حراً ، ولم يكن الا عبداً للمال ، وظن نفسه ابياً ، ولم يكن الا ذليلاً لسلطان .. »

« ان المتنبي قد ظن بنفسه غير ما كانت عليه . وما اكثر ما يخدع الناس عن انفسهم . ولكن الغريب ان المتنبي لم يخدع نفسه وحدها ، وانما خدع معها كثيراً من الناس فظنوا به الحرية والكرامة واباء الضيم . »

واعلن الدكتور طه حسين او اذاع في كتابه « الوان » في فصل عنوانه « الادب العربي بين امسه وغده » :

« ان هناك تطوراً لأدبنا الحديث اعظم خطراً وابعد اثراً من كل ما قدمت وهو الذي سيوجه الادب في المستقبل الى غاياته التي لا يستطيع عنها تحولا او انصرافاً فيما اعتقد » .

وهنا يشير الى الادباء الاحرار الذين « يكبرون انفسهم ان يحميهم هذا العظيم او ذاك . »

ثم يتابع : « قد تقول انهم ينتجون للجمهور ، فهم مدينون للجمهور بحياتهم الادبية » . وكل « اديب في بيئة متحضرة انما يعيش للجمهور وبالجمهور ، كما ان الجمهور نفسه يعيش لكل انسان . » .

« فالظاهرة الخطيرة في ادبنا الحديث هي هذه الكرامة التي كسبها الادباء لانفسهم ولادبهم والتي مكنتهم من ان يكونوا احراراً فيما يأتون وفيما يدعون » .

« اما الوجه الثاني لهذا التطور فهو ان الحرية نفسها قد فتحت للادباء ابواباً لم تكن تفتح لهم حين كان الادب خاضعاً للسادة والعظماء . وقد اثرت ظروف التطور الانساني في توجيه هذه الحرية . فقد كان الادباء القدماء ، يؤثرون انفسهم ويؤثرون الفن ويؤثرون الشعب بما ينتجون ، وكذلك عكف الادباء على انفسهم فحللوها وعرضوها : وكذلك فرغ الادباء لفنهم فجودوه كما يريدون ويستطيعون ، وكما يريد الفن ، لا كما يريد هذا السيد او ذاك .. وكذلك عكف الادباء على الشعب ، فجعلوا يدرسونه ويتعمقون درسه ، ويعرضون نتائج هذا الدرس ، ويظهرون الشعب على نفسه فيما ينتجون له من الآثار . وهذا كله قد رفع الادب الى الصدق والدقة وجعله انسانياً لا فردياً ، ووضعه حيث وضعت الاداب الحية الكبرى نفسها بحكم التطور الذي دفعتها اليه ظروف الحياة الحديثة . »

و« هناك حقيقة واقعة . وهي التي اريد ان اختم بها هذا البحث الطويل وهي ان الحياة الانسانية على اختلاف بيئاتها تتجه الان اتجاهات شعبية لا فردية . ومن طبيعة هذه الاتجاهات الشعبية ان تستغرق كل شيء » . والادباء « سيلائمون في ادبنا العربي ، كما لاءم زملاؤهم في الاداب الاخرى ، بين امتياز ادبهم الرفيع وطموح الشعوب الى ان تستغرق كل شيء » .

اسوق هذا الكلام من غير تعليق ، لأني لا اقصد في هذا الفصل قصد النقد ، ولا اقصد قصد المناقشة .

فتلك وقائع اثارت في نفسي الواناً من الملاحظات والتفكير رأيت ان اذيعها على القراء لتثير في نفوسهم الملاحظة والتفكير .

موريس كامل